تاريخ الحركة العلمية الحديثة في حضرموت

الأستاذ أحمد عوض باوزير

قبل خمسين عاما ، أو أكثر كانت (حضرموت) تعيش في عزلة تامة عن تطورات الثقافة في الأقطار العربية . وكانت دور (الكتاتيب) التي عاشت إلى وقت متأخر جدا هي كل ما هناك من مظاهر الحياة العقلية والعلمية .

ويجوز أن تكون (حضرموت) قد عرفت من مظاهر الحياة العلمية والعقلية غير هذه (الكتاتيب) . إلا أننا لا نستطيع أن نحدد ، من الناحية التاريخية ، معالم تلك الحياة ، أو نتبين آثارها الأدبية . فإن دراسة تاريخ الحياة الأدبية ، والسياسية ، والعقلية في حضرموت ليس من التعذر بحسب وإنما كذلك عمل شائك لا يخلو من المفارقات واللابسات

ونحن لا نريد أن نتبع مذهب (ديكارت) في هذه الدارسة العلمية ، أو مذهب (الشك) كما يسميه الدكتور (طه حسين) ؛ لأننا في فجر هذه النهضة الحديثة نطمع في الظفر بمعلومات أوفى ، عن مظاهر الحياة العقلية ، والعلمية . ولقد سررنا كثيرا ، للفتوحات الجديدة ، في التأليف عن التاريخ العام لحضرموت ، وهي الفتوحات التي بدأها الأستاذ (صلاح عبد القادر البكري) حين أخرج كتابه (تاريخ حضرموت السياسي) وهو تعريف موجز بالحكومات السياسية ، التي تعاقبت على (حضرموت) منذ صدر الإسلام إلى أواخر عهد السلطنات القائمة

أما بعد : فإن (الكتاتيب) التي أثبتنا أنها كل ما بقي لنا من مظاهر الحياة العقلية والعلمية ، فيما قبل الخمسين عاما الماضية لا يفي أن يكون هناك من (النوابغ) من كانت ظروف حياته المعاشية أو أحوال استعداده الفطري قد أعانته على التفوق في العلوم الدينية والعربية ، غير أن هذه (الحالات) الفردية لا يصح أن تكون مرآة صادقة للحياة العقلية والأدبية

والذي يمكن الاطمئنان إليه في معرفة نشأة الحياة العقلية ، في (حضرموت) هو أن ظهور المدرسة القديمة ، أو ما يسمونه (بالجامع العلمي) ، في أوائل القرن الرابع عشر الهجري كان بداية طبيعية لتلك الحياة . وهذه (الجامع) تشبه إلى حد ما في نظام دراستها ، تلك الجوامع القديمة التي كانت منتشرة في حواضر الدولة العباسية

وأشهر هذه (الجامع) التي نريد التنويه بفضلها ، هو (جامع الشاطري) في سيئون ، وجامع (ابن سلم) في الغيل ، وجامع (مشهور) في الشحر . والجامعين الأولين ، أكثرهما تأثيرا في الحياة العقلية ، وأبعدهما خطرا ، في الحياة الاجتماعية . وإليهما ينتسب أغلبية (المتعلمين) من ذوي الكفاية النادرة ، والإنتاج الرفيع . وقد كان يقوم بتدريس اللغة العربية ، وأصول الشريعة الإسلامية فيهما أساتذة قديرون حذقوا تلك (الاختلافات) في المسائل الفرعية التي امتلأت بها كتب (الحواشي) المطولة و (الشروح) التقريرية

ويكفي للتدليل على أهمية هذه (الجامع العلمية) أن يكون من خريجيها أمثال السيد (ابن هاشم السلوى) والمرحوم الشيخ (عبد الله محمد بن طاهر) والأديب المؤرخ (سعيد عوض باوزير) والسيد (محسن جعفر بوقس) . وغيرهم كثيرون

وهذا لا يمنع أن يكون لدينا من الملاحظات عن هذه (الجامع العلمية) ما يفيد في تصوير الأحوال ، داخل هذه (الجوامع) . وهي ملاحظات استخلصناها أثناء مراجعاتنا للأنظمة التعليمية في المدة الحاضرة ، وأولى هذه (الملاحظات)

هو ما نسميه اليوم (بفوضى المناهج) فالطالب فى هذه (الجامع) لا يمكن أن يتقيد (بالزمن) سواء أكان فى التحاقه، أو فى الأعوام الدراسية أو فى مواعيد حضوره وغيابه

وقد يبدو أن هذه (الملاحظة) ليست على شئ من الأهمية ، أو الخطورة والعكس — فى نظرنا — هو الصحيح . فإن هذه (الفوضى) تكون قد حرمت الكثير ، الفرصة للاستفادة من (المواعيد) ولذلك تضطرهم إلى البقاء داخل هذه (الجوامع) أعواما أطول

وثانى هذه (الملاحظات) أن هذه (الجوامع) تسرف كثيرا فى مناقشة (الآراء) التضاربة أو ما يسمونه بأقوال (الحواشى) وهى أقوال عديمة الفائدة ، تؤثر فى نفسية (الطالب) تأثيرا خطيرا ينتهى به إلى (الفناء) وسط تلك (الحواشى) وبيعده عن الجوهر والعرض

وهناك غيرهما من (الملاحظات) . غير أننا لسنا بصدد الدراسة الخاصة . وفى هذا القدر الذى أثبتناه ما يكفى للتعريف بأحوال (الجامع) ونظام دراستها

وظهرت فى هذه الأثناء (المدرسة الحديثة) وهى تختلف تمام الاختلاف عن نظام الدراسة فى تلك (الجامع العلمية) . وأولى هذه المدارس هى مدرسة (الداغ) فى الكلا . وكان قد دعا إلى تأسيسها السيد (حسين آل الداغ) وهو من الحجازيين الذين فروا على أثر الحملة النجدية الوهابية

وأنشأت (مدرسة الداغ) فى الكلا فرقة للكشافة ، كانت أول فرقة منظمة . كما قد أجازت تعليم (الجغرافيا) و (التاريخ) و (الأشياء) وهى العلوم التى كانت (العامة) تعتقد أنها تفسد الدين ، وتؤذى (الأسلاف) ..

وعلى أثر ارتقاء عظمة السلطان (صالح بن غالب القعيطى) عرش السلطنة القعيطية ، تغيرت الحياة العلمية تغيرا كبيرا . واقترن عهده (الزاهر) بالنهضة الحديثة التى سنأتى على وصفها فى النبذة التالية : —

وقبل الإفاضة فى الحديث عن مقومات النهضة الحديثة نعود إلى ذكر الحكومات السياسية المعاصرة التى تحكم (حضرموت) . وهى الحكومات التى ترتبط و(الدولة البريطانية) بمعاهدة التحالف والصداقة ، وأكبر هذه الحكومات نفوذا ، وأوسعها رقعة . هى الحكومة (القعيطية) . ويتولى عرش هذه الحكومة ، عظمة السلطان (صالح بن غالب القعيطى) وهو يحكم القطاع الساحلى ، ومناطق أخرى فى البلاد الداخلية ؛ وأشهر مدنها (المكلا) . وهى من الموانى الهامة فى جنوب الجزيرة العربية ، وعاصمة الحكومة القائمة . و (الشحر) وهى المدينة التاريخية القديمة . و (الغيل) وهى من المناطق الزراعية ، ومركز النهضة العلمية الحاضرة . و (شيام) وهى مدينة التجارة

وثانى هذه (الحكومات) هى الدولة الكثيرية . وهى من الحكومات القديمة التى يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثامن الهجرى . ورئيس الحكومة الحالى هو السلطان (حسين بن على بن منصور الكثيرى) و (تريم) و (سيئون) وهما من المراكز العلمية والأدبية فى تاريخ النهضة — يخضعان (للحكومة الكثيرية) والأولى من المدن التاريخية القديمة ، والثانية عاصمة الحكومة الحاضرة ، ومهبط الأدباء ، والمؤرخين من المحدثين

وهناك غيرهما من الحكومات . وهو ما نسميه بالحكومة القبلية . ولكن هذه الحكومة آخذة فى الزوال بفضل سياسة دار المستشار البريطانى المقيم التى دأبت على نشر الأمن العام والقضاء على العصاة ، من الخارجين على الحكومتين ، الفعليتين

ولعل من أبرز مقومات النهضة الحديثة ، فى بلدان السلطنة القعيطية ، هو تلك الجهود الصادقة التى يبذلها عظمة السلطان لتشجيع الحركة العلمية والاقتصادية . فقد ظل يتفشاهما برعايته ويتعهدهما بتوجيهه وإرشاده . وكان قد عهد إلى دار المستشار البريطانى ، المقيم فى وضع تقرير شامل لإصلاح التعليم . ووضع هذا التقرير ، عميد معهد التربية بالسودان المستر (قرفت) بدعوة من الحكومة القعيطية . ووكل المستر قرفت إلى الأستاذ

(القدال) تنفيذ تلك المقترحات . وهو من المواطنين السودانيين والأستاذ القدال هو الذى تولى بعد ذلك ، سكرتارية الدولة القعيطية . بعد أن أمضى عشر سنوات ، فى خدمة التعليم بحضرموت ، وتم فى العشر السنوات الماضية ١٩٣٩ — ١٩٥١ توحيد المنهج العام وترميم المدرسة الوسطى . وإنشاء مدرسة المعلمين والثانوى الأصغر والمعهد الدينى الجديد . ووسعت خزينة الدولة الإنفاق على هذه المشاريع العلمية ، كما استجلبت عددا من الموظفين السودانيين للعمل على تنفيذ توصيات المستر قرفت بشأن تقدم التعليم

وقد تم فى السنوات الخمس الماضية إيفاد المبعوثين من خريجى التعليم الأوسط ، إلى المدارس الثانوية فى مصر ، والسودان ، وسوريا ، والعراق . وقد عاد بعض هؤلاء إلى حضرموت والتحقوا بالمصالح الحكومية فى الدولة

ومن المآثر الطيبة التى خلدها عظمة السلطان ، هو تأسيس المكتبة السلطانية بالمكلا ، وهى من المكتبات الشهيرة ، وتضم من المؤلفات القديمة والحديثة ما يربو على الثلاثة الآلاف فى مختلف الفنون والعلوم

وعلى الرغم من النقص المالى الذى تعانيه خزينة الدولة الكثيرة فإنها لم تقصر فى العناية بالشؤون التعليمية . فقد أنشأت المدرسة السلطانية فى سيئون . وتولى إدارتها على التوالى السيد محمد بن هاشم العلوى والسيد على بن شيخ بافقيه ، وتدرس الحكومة الحاضرة مشروعا جديدا . لإنشاء نظارة للمعارف . وأعربت دار المستشار البريطانى عن استعدادها لتقديم الإعانات المالية لهذا الغرض . ويقوم السيد على بن شيخ بافقيه فى هذه الآونة بدراسة نظام التعليم الحالى فى مدارس الدولة القعيطية ، وهو من المتحمسين للفكرة والداعين إلى الوحدة

وهناك غير هذه المدارس الرسمية فى الحكومتين المدارس الأهلية ، وهى تسير وفق مناهج خاصة ، مقتبسة من مناهج التعليم فى البلاد العربية . ولا يزال التعليم الأهلى يفتقر إلى الجهود الكثيرة ، والإعانات المالية ، ليؤدى رسالته العامة على الوجه الصحيح

ويقترح الأستاذ صلاح عبد القادر البكرى فى كتابه الجديد عن رحلته فى جنوب الجزيرة العربية ، أن يقوم المسئولون ، فى نظارة المعارف على إجراء تعديل شامل ، فى المنهج السودانى ليتمشى والأحوال الطبيعية ، والتربوية فى حضرموت

هذا هو تاريخ الحركة العلمية الحديثة . فى حضرموت . أجملناه فى هذه الصفحات . وهو تعريف بأوجه النشاط العلمى والثقافى فى الحضن عاما الماضية من تاريخ حضرموت . نرجو أن يفيد فى التعريف ، بهذه البلاد العربية ، التى تسعى حثيثا إلى النهضة والرقى

أحمد هوصه باوزير

مختارات من الأدب الفرنسى

شعر ونثر

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد القريدة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد